من قيم الإمام الحسين عليه السلام

كلمة التضحية في اللغة، مصدر للفعل ضحّى، يقال: ضحى بالشاة ونحوها، أي ذبحها في الضحى (يوم عيد الأضحى)، ويقال: ضحّى بنفسه، أو بعمله، أو بماله: أي بذله دون مقابل. بالتالي التضحية في سبيل الله تعالى بالمال والنفس والممتلكات هي من أقدس الأعمال لأنّ الفاعل لا ينتظر مقابلاً إلاّ رضا الله سبحانه وتعالى، وهي خير دليل على رقي إيمان المرء ويقينه وتسليمه لقضاء الله.

وقد وعد الله تعالى المضحين أحسن الجزاء: ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ (التوبة/ ١١١)

وبما أن الدعوة لا تحيا إلاّ بالجهاد، ولا جهاد إلاّ بتضحية، لذا وجبت التضحية وحرّم القعود والتخاذل عن نصرة الله، حتى لو أدّى ذلك إلى التخلي عن أعز الناس ومحاربتهم نظراً لأن هناك أهدافاً أسمى، سيؤدي التخلف عنها الى نتائج وخيمة ﴿قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾ (التوبة : ٢٤)..

والتضحية المطلوبة لا تعني بالضرورة أن يموت الإنسان من أجل قضيته، ولكنها تعني حتماً الاستعداد للمغامرة من أجلها وعدم وضع حدّ لما تتطلبه من الغالي والرخيص. والتضحية بالنفس هي من أعظم تجليات التضحية.

وقد تجلّت التضحية بأعظم معانيها مع الإمام الحسين عليه السلام في كربلاء. فالإمام عليه السلام لم يضحِّ بنفسه فقط، بل ضحّى بعياله ونسائه وأهله وأصحابه وبكل شيء من أجل رضا الله تعالى، وها هي كلماته عليه السلام تعلّمُ كل مضحٍّ أنّ الهدف الأسمى هو رضا الله مهما عظمت التضحية :«أرضيت يا رب؟ خذ حتى ترضى».

ولم يكن هذا البذل للنفس والولد والأهل، عبثاً، فالإسلام في ذلك االوقت كان مهدداً بالخطر، والمسلمون كانوا في حالة سُبات وغفلة، والظلم عمّ المعمورة، ويزيد لم يتورع عن الجهر بالمعاصي والمحرمات. هذه الغفلة التي أصابت المجتمع في ذلك الوقت والتي قلبته رأساً على عقب، فصار يُرى الحق باطلاً والباطل حقاً: «ألا ترون أنّ الحق لا يعمل به، وأنّ الباطل لا يتناهى عنه» ، وانصرف الناس لطلب شهوات الدنيا، فانقلبت المعايير، وبدأت قداسة نسل النبوة عند الناس بالتراجع، فلم يقف لنصرة الإمام عليه السلام إلا القليل، لأن روح التضحية لديهم قد تلاشت، وصار «الدين لعقاً على ألسنتهم، يحوطونه ما درّت معائشهم فإذا محّصوا بالبلاء قلّ الديانون». هذه الغفلة التي اصابت المجتمع آنذاك لم يكن ليوقظها إلا إهراق الدم، وليست أي دماء هي التي ستحقق الهدف، إلاّ دماء سيد الشهداء ووارث الأنبياء عليهم السلام الإمام الحسين عليه السلام. فثار من أجل الحفاظ على الإسلام قبل أن تنطمس معالمه: «على الإسلام السلام إذا بليت الأمة براعٍ مثل يزيد»، ومن أجل إصلاح الناس واستقامة حياتهم والتخفيف عن آلالامهم وإزالة الجور والطغيان: «إني لم اخرج أشرا، ولا بطراً، ولا مفسداً، ولا ظالماً. وإنّما خرجت لطلب الإصلاح في أمة جدي صلى الله عليه وآله أريد أن آمر بالمعروف، وأنهى عن المنكر، وأسير بسيرة جدي وأبي».

هذه الأهداف السامية دفعت بالإمام عليه السلام إلى التضحية بالغالي والنفيس وتفضيل الموت على الذل: «الموت أولى من ركوب العار، والعار أولى من دخول النار»،حتى خاض غمرات الموت ولم تأخذه في الله لومة لائم، فنال عليه السلام شرف مقام سيد الشهداء ووارث الأنبياء، ووقى الدين وحفظ الإسلام الذي هو خلاصة جهد الأنبياء عليهم السلام بدمه وعياله ونسائه وأصحابه من أجل نظرة رضا من الله سبحانه وتعالى.

هذه هي حقيقة التضحية التي رسمها الإمام عليه السلام لكي تبقى خالدة على مرّ الأجيال ولكي يصل صداها الى قلب كل مؤمن ليبذل في سبيل الحق كل ما يملك ولا يخاف في الله لومة لائم.